الحياة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر خلال العصور العباسية
-الصناعة أنموذجاً-

Economic Life in the Countries Beyond the River During the Abbasid Ages -Industry as A Model-

د. غزوة شهاب احمد المصطاف
أستاذ
جامعة سامراء- كلية التربية - قسم التاريخ

Dr. Ghaswa Shehab Ahmed Al-Mistaf
professor
University of Samarra- College of Education- Department of History

dr.gazoa@gmail.com

الكلمات المفتاحية: طخارستان- الكرابيسي- الأباريق- الآدم- المسك.

Keywords: Takharastan- Al-Carabesi- kettles- Al-Adam- Musk.

الملخص

حظيت بلاد ما وراء النهر بمناطقها المختلفة في ظل الدولة العربية الإسلامية باهتمام المؤرخين من خلال ما نقلوه عن الجوانب الاقتصادية ، وتعد الصناعة مفصلاً مهماً من مفاصل الحياة لتلبية الحاجات الأساسية للأفراد لذلك كان لابد من الاهتمام بها ورعايتها ، ومن أهم الصناعات التي تميزت بها بلاد ما وراء النهر هي صناعة المنسوجات والصناعات الغذائية والأثاث والزجاج وأهم صناعة كان لها تأثير على تطور الحركة الفكرية في الأقاليم الإسلامية هي صناعة الورق .

Abstract

The countries beyond the river, with its various regions under the Arab Islamic State, have received the attention of historians through what they transmitted from the economic aspects. The industry is an important aspect of life to meet the basic needs of individuals, so it was necessary to pay attention and care for it. One of the most important industries that characterized the country beyond the river are the textile industry, food industries, furniture and glass, and the most important industry had an impact on the development of intellectual movement in the Islamic regions is the paper industry.

المقدمة

تعتبر منطقة بلاد ما وراء النهر من المناطق الغنية بثرواتها، وازدهرت بها المظاهر الاقتصادية بكافة اشكالها التجارية والصناعية والزراعية ، لذا تعد من المناطق المهمة لدراستها لوفره المعلومات عنها ،وايضا كونها احد اهم اقاليم الدولة العربية الاسلامية .

لهذا تطرقنا في موضوع بحثنا الى احد اهم مجالات الاقتصاد الاسلامي الا وهو الصناعة في مدن اقليم بلاد ما وراء النهر ، وبعد ان استعرضنا اهم اقاليم بلاد ما وراء النهر وكذلك ابرز مدنه ، واهم الممالك الاسلامية التي تواجدت هناك في المبحث الاول ، بدانا نستعرض اهم اقاليم بلاد ما وراء النهر وابرز الصناعات فيها مثل اقليم الصغد واهم مدنه كبخارى وسمرقند وتنوع الصناعات في تلك المدن، من صناعة المنسوجات الى الصناعات الغذائية والحيوانية والمعدنية والخشبية ، وصناعة الورق والكتان وغيرها .

كما اشرنا الى باقي اقاليم بلاد ما وراء النهر مثل اقليم خوارزم وتطور صناعة المنسوجات هناك بالأضافة الى الصناعات الحيوانية ، واستعرضنا ايضا باقي اقاليم بلاد ما وراء النهر والصناعات المتواجدة فيها ، كما وذكرنا اهم المنتوجات الصناعية لكل اقليم ومدى تنوع تلك المنتوجات واشرنا الى التطور في تلك الصناعات بالنسبة الى باقي اقاليم الدولة العربية الاسلامية .

المبحث الأول

العرض الجغرافي لبلاد ما وراء النهر

مفهوم بلاد ما وراء النهر

أطلق الجغرافيون العرب على المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهري سيحون – سير دريا حاليا– - Sir Darya وجيحون – أو دزيا حاليا -Amu Daryaاللذين يصبان في بحر خوارزم – آرال حاليا – والشاطئ الأيسر لنهر سيحون، ويشمل طخارستان، والختل، هذه البلاد أطلق عليها المسلمون – قديما بلاد ما وراء النهر.(١)

يصف المقدسي البشارى (ت٣٩٠هـ) هذا الإقليم بقوله: "هو أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء و(هو) معدن الخير، ومستقر العلم؛ وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم؛ ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود. فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك... ترى به رساتيق(٢) جليلة، وقرى نفيسة، وأشجارا ملتفة، وأنهارا جارية ونعما ظاهرة. ونواحي واسعة، ودينا مستقيما"(٣).

ولا يتبادر إلى أذهاننا أن بلاد ما وراء النهر – بعد هذا الوصف الرائع من المقدسي – كانت تكون وحدة جغرافية واحدة، بل على العكس، اذ قامت في هذه المنطقة عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض. وهذه الممالك منها ما يقع على نهر جيحون، وهي: مملكة طخارستان، ومملكة الختل، ومملكة صفديانان، ومنها ما يقع بين نهري جيحون وسيحون، وهي: مملكة الصغد (بخارى وسمرقند)، ومملكة خوارزم، ومنها ما يقع خلف نهر سيحون، وهي: مملكة فرغانة، ومملكة أشروسنة، ومملكة الشاش.

وعلى ذلك؛ فيمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم، وهي:(٤)

١. اقليم الصغد: وهو (صغديانا القديمة) عاصمته بخارى وسمرقند.
٢. إقليم خوارزم: في غرب الصغد، وهو الإقليم المعروف اليوم ب (خيوه)، ويشتمل على دلتا نهر جيحون.

---

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة الكويت. ١٠٤١م – ١٨٩١م، ص١٤٥.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى وهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٠.

(٣) المقدسي: (أبي عبد الله محمد بن أحمد البشارى (ت ٣٩٠هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١ اه – ١٩٩١م ط٣، ص٣٦٠.

(٤) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية – الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣، ص٣٣٨ – ٣٣٩.

٣. إقليم طخارستان: في الجنوب الشرقي ومعه الصغانيان، والختل وغيرهما من الكور التي تقع في أعالي جيحون، وإليه أيضا تعود (بدخشان). وإن وقعت في ضفته اليسرى، أي الجنوبية، فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها.

٤. إقليم فرغانة: في أعلى نهر سيحون.

٥. إقليم أشروسنة: في أعلى نهر سيحون كذلك.

٦. إقليم الشاش: وهو اليوم إقليم (طشقند)، مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة حتى مصب نهر سيحون في بحر آرال[١] (بحيرة خوارزم).

(١) د. أحمد شلبى؛ موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣ م، ج٨، ص ٥٨٢.

المبحث الثاني
الصناعة

كانت الصناعة في خلافة الراشدين، والدولة الأموية معظمها صناعات خفيفة باستثناء الصناعات الحربية من سيوف ودروع.... إلخ - وذلك لقرب هذا العهد بالبداوة، والاعتماد على البساطة في المأكل والمشرب والمسكن، وسائر شئون الحياة. فإذا انتقلنا إلى الدولة العباسية فإننا نجد العكس تماما. حيث ظهرت حياة الترف والنعيم، واتسعت الدولة، وبنيت القصور، وكثر بها الرقيق والجواري، واتصلت الحضارة الإسلامية بباقي حضارات العالم، وخاصة الحضارة الساسانية المشهورة بالتأنق في شئون الحياة المختلفة، فكان من الطبيعي أن تستغل الدولة العباسية موارد الثروة الطبيعية لديها فقاموا بإنشاء المصانع المتنوعة لسد حاجات الشعوب الإسلامية، ومن ثم أقيمت حرفة المنسوجات القطنية والصوفية، واهتموا بصناعة الزجاج والصابون والعطور والأصباغ، بالإضافة إلى إنشاء مصانع الورق والفخار وغيرها.

كذلك اهتم الخلفاء العباسيون بأمر الصناع، فعملت الدولة على استقدام عدد من الصناع من الخارج - الدولة البيزنطية - مثلا للاستفادة من مهاراتهم وخبراتهم، ولإعطاء الفرصة لصناع البلاد الإسلامية للاستفادة من تلك الخبرات(١).

ومن الامور المهمة التي تخص الصناعة في بلاد ما وراء النهر، وهي:

أولا: اتسمت الصناعة في هذا العصر - فترة البحث - بالاعتماد في معظم الأحيان - على الصناعات اليدوية، التي تتسم بالمهارة، مع مساعدة الآلات والأدوات الإنتاجية ذات الطابع البسيط.

ثانيا: اتسمت الصناعة بالفردية، أو باشتراك عدد محدد من العمال في صناعة واحدة.

ثالثا: تأثرت الصناعة في بلاد ما وراء النهر بصناعة أهل الصين، الذين اشتهروا منذ القدم بمهارة ودقة التصنيع. يقول المسعودي:" أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة، وقل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه"(٢)، لذا فكانت العرب تقول لكل طرفة من الأواني وما أشبهها صينية، لاختصاص أهل الصين بصناعة هذه الطرائف(٣)، ونظرا القرب بلاد ما وراء النهر بهذه البلاد فكان من الطبيعي أن

---

(١) عصام نقلي: تحليل الفكر الاقتصادي في العصر العباسي الأول، ص٧٠.

(٢) مروج الذهب، ج١، ص١٣١.

(٣) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢٢٠، النويرى: نهاية الأرب، ج١، ص٦٦٣.

يتأثروا بهم، ويأخذوا عنهم بعض الصناعات الدقيقة، ولا غرابة في ذلك فما زلنا إلى يومنا هذا نستخدم الكثير من الأدوات الصينية ونحاول تقليدها.

رابعا: اشتهرت بعض أقاليم بلاد ما وراء النهر بإنتاج نوع معين من الصناعات، كصناعة المنسوجات ببخارى، وصناعة الورق بسمرقند، بينما عمت صناعات أخرى جميع الأقاليم كصناعة العطور مثلا.

خامسا: يواجه الباحث في التاريخ الإسلامي في منطقة البحث صعابا هائلة في معرفة سعر السلعة، حيث كانت السلع تقدر بموازين أو معايير تختلف حسب المكان والزمان، بالإضافة إلى اختلاف القيمة النقدية للسلعة من مكان لآخر، واختلاف مسميات العملة، وعدم معرفة قيمتها.

والآن نتعرف على صناعات كل إقليم من أقاليم بلاد ما وراء النهر بالتفصيل:

اولا– إقليم الصغد :

أ– بخارى: شهد العصر العباسي تطورا كبيرا في صناعة النسيج، حيث تتطلب هذه الصناعة فناً في أشكالها وطرق زخرفتها واختلاف أنواعها، واشتهرت معظم المدن الإسلامية بإنتاج أنواع مختلفة من المنسوجات، كما اختصت بعض هذه الأقاليم بإنتاج أنواع منها دون غيرها.

هذا وازدهرت هذه الصناعة في بلاد العراق – مقر الخلافة العباسية – وذلك لما سنه الخلفاء العباسيون والأمراء من مكافأة أكابر رجال الدولة بالخلع الثمينة، ولاعتناء الناس بصورة عامة بالملابس، مما شجع الصناع على تحسين إنتاجهم والإكثار من أنواعه، فكان لكل طبقة لباس خاص بهم [١]، حيث كانت الملابس تدل على منزلة الشخص وعلو مقامه، كما كانت كل مناسبة تطلب نوعا خاصا من الملابس[٢].

١ـ صناعة المنسوجات: إلى جانب شهرة بغداد في صناعة المنسوجات، فقد اشتهرت أقاليم المشرق الإسلامي – لاسيما بخارى – بهذه الصناعة، يقول ابن حوقل: "ويرتفع من بخارى ونواحيها ما يحمل إلى العراق وسائر البقاع ثياب تعرف بالكرابيسي – ثقال الوزن غليظة السلك مبرمة الغزل – فيرغب العرب فيها"[٣]، ويقول الإصطخرى عن زي أهل بخارى:" ويغلب على زيهم الأقبية والقلانس"[٤].

---

(١) دبماند: الفنون الإسلامية، ص٢٤٩.

(٢) سامية توفيق: تطور صناعة المنسوجات بالمشرق الإسلامي في العصر العباسي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥، ص٤٩٥؛ لسترنج بلدان الخلافة الشرقية، ص٣٣.

(٣) صورة الأرض، ص٤٠٩.

(٤) المسالك والممالك. ص١٧٦.

بالاضافة الى شهرة بخارى بصناعة المنسوجات، اشتهرت مدينة الطواويس بإنتاج القطن الذي تصنع منه المنسوجات الذي يحمل منها إلى العراق لكثرتها[١]، وكان يرتفع من كرمينية المناديل، واختصت الدبوسية بإنتاج نوع من الثياب يسمى الديبج[٢]، ومن اربنجن المصليات وأزر النساء[٣]، ونسب إلى مدينة الزندنة نوع من الثياب يسمى الزندنيجين الذي أشار السماني وياقوت الحموي إلى شهرة تلك الثياب في الآفاق، حيث كان التجار يأتون من مختلف الولايات ويحملون الزندينجي إلى الشام ومصر وغيرها من الأقطار[٤]، وكان الأمراء والملوك يتخذون منه ثيابا لهم، ويشترونه بثمن الديباج على قول النرشخى[٥]، كذلك اشتهرت مدينة اسكجكت، بإنتاج نوع من الثياب يسمى الكرباسي.

واهتم الخلفاء العباسيون، وأمراء الأقاليم بدور الطراز[٦]، فأنشئت تلك الدور في سائر اقاليم الدولة العباسية – والمشرق الإسلامي بصفة خاصة – حيث كانت تصنع هناك ملابس الخلفاء والأمراء، وجدير بالذكر، أن هذه الصناعة قديمة وهي معروفة منذ أيام الدولة الساسانية، وعنهم نقلها الأمويون، واستمر العمل بها – مع تطويرها – في ظل الدولة العباسية[٧].

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٤٩٥.

(٢) الديباج: نسيج من الحرير مختلف الأجناس استعمل كثيرا في العصور الوسطى. وكان لباسا للرجال في الدولة الإسلامية. والكلمة فارسية مركبة من مقطعين هما (ديو)؛ أي الجن، و(باف) أي نسيج. وعلى ذلك يكون معنى الكلمة نسيج من الحرير الخالص، دفيق الصنية ولا يستطيع نسجه إلا الجن كناية عن امتيازه. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص١٥٩.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٢٦، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥١٥.

(٤) الأنساب، ج١، ص١٧٢. معجم البلدان، ج٢، ص٤٨٥.

(٥) تاريخ بخارى، ص٣١.

(٦) طراز: كلمة فارسية الأصل ومعناها التطريز، ثم أصبحت تطلق على الثوب الموشي، فكان هذا اللفظ يطلق على كل قطعة نسيج عليها كلمات منقوشة ثم صارت تطلق على المكان الذي تصنع فيه هذه الأشياء. ديماند: الفنون الإسلامية، ص٢٤٩. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص١١٧. دائرة المعارف الإسلامية، ج١٥، ص١٢١ مادة طراز". وللمزيد انظر، ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص١٧٦.

(٧) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص ٢٥٣. سامية توفيق: تطور صناعة المنسوجات، ص٥١٥.

هذا، وقد ظهر نوعان من دور الطراز، أولهما: دور الطراز الخاصة، وهي التي كانت تصنع فيها المنسوجات الخاصة بالخلفاء، والأقمشة التي كان يخلعها الخليفة على كبار رجال الدولة، وأفراد حاشيته، ووصل اهتمام الخلفاء بهذا النوع من الثياب أن أطلق اسم بعضهم عليها، ومن هؤلاء الخليفة المتوكل (٢٠٦- ٢٤٧هـ/ ٨٢١- ٨٦١م) الذي أطلق على نوع من الثياب اسم المتوكلية، والتي يصفها المسعودي بقوله: "إنها نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن، والصيغ وجودة الصنع"(١)، ثانيهما: دور الطراز العامة، وهي الخاصة بأفراد الشعب، وكان لبعض أجهزة الدولة (كالمحتسب) حق الإشراف والمراقبة عليها.

ونعود إلى المشرق الإسلامي فنقول، عرف الصينيون طرق غزل ونسيج الخيوط المستخرجة من شرانق الحرير منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد أو يزيد، واحتفظوا بسره حقبة طويلة من الزمن، وعنهم أخذ أهل بخارى إتقان صناعة الحرير، وقد أشار النرشخي إلى وجود دار صناعة الطراز بالقرب من المسجد الجامع(٢)، وكانت هذه الدار تنتج كميات ضخمة من الوسائد والبسط والسرادقات واليزديات(٣)، وسجاجيد الصلاة، وكان يقوم بهذه الصناعة جماعة من أمهر الصناع المخصصين لهذا العمل، وكانت تنتج ألوانا مختلفة من الثياب منها: الأحمر والأبيض والأخضر ولم يكن هناك ملك أو أمير أو رئيس أو صاحب منصب لا يوجد عنده شيء منها"(٤).

وممن اشتهر بصناعة الثياب في بخارى الإمام الحجاج ابو محمد بن عبد الجبار الكسائي كان يعظ ويجلس للعامة، واشتهر بالعلم والخير، توفي ودفن ببخارى. وممن اشتهر بغزل الصوف وعمل الأكسية ابنا الخرعونى ، بعث بهما ابوهما إلى سمرقند عام (٢٣٣هـ/ ٨٤٨م) طلبا للعلم، وفي خلال ثلاثة أعوام جودا العلوم، بينما كانت أمهما تنفق عليهما من عملها في غزل الصوف(٥).

وخلاصة القول، إن صناعة المنسوجات بجميع أنواعها كانت متقدمة ومزدهرة في بخارى، مما زاد الإقبال عليها، ومن ثم كانت تصدر إلى سائر الآفاق الإسلامية.

٢- الصناعات الحيوانية: إلى جانب صناعة المنسوجات ظهرت في بخارى بعض الصناعات المتنوعة التي لا يمكن الاستغناء عنها، ومن أمثلة هذه الصناعات صناعات قائمة على الثروة الحيوانية، ومنها:

---

(١) مروج الذهب، ج٤، ص٨٣.

(٢) تاريخ بخارى، ص٣٩.

(٣) اليزدبات: نوع من القماش الفاخر: النرشخى: المصدر نفسه، ص٣٧، حاشية (٢).

(٤) النرشخى: المصدر نفسه، ص٩٣، فامبرى: تاريخ بخارى، ص٢٥.

(٥) السمعاني: الانساب، ج٢، ص٣٤٦.

صناعة الجبن الذي يصنع من اللبن، وذلك لكثرة الثروة الحيوانية في بخارى، وممن اشتهر بهذا العمل خطيب بخارى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الجبنى. وصناعة الحذاء (النعال) من جلود الحيوانات، وممن اشتهر بهذا العمل أبو عمرو أحمد بن محمد الحذاء، وأبو القاسم بكر بن الفضل، وابنه محمد وهم من أهل بخارى(١)، وصناعة دبغ الجلود، ويطلق على صاحبها اسم البخي، ومنهم أبو عبد الله محمد، وأبو حفص عمر، ابنا أبي بكر بن عثمان السبخي، كانا من أهل الخير والصلاح والعفاف، واشتهرا بتدريس علم الحديث وسكنا بخارى"(٢)، وايضا صناعة خياطة الفرو، المتخذ من جلود الحيوانات البرية، وممن اشتهر بهذا العمل أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الفراء، سمع الحديث ببخارى، وكان من الثقات(٣)، ومنها حرفة الجزارة، وكان يسمى القضاب، ومنهم على بن الحسن بن ثوية، من أهل بخارى، روى عنه جماعة من أهل العلم، توفى عام (٢٧٦هـ/٨٨٩م) ببخارى(٤)، كذالك صناعة الجوالق التي تلبس في القدم وكانت – عادة – تتخذ من جلود الحيوانات، وذلك لشدة البرد في فصل الشتاء في هذه البلاد، وممن اشتهر بهذا العمل، أحمد بن محمد الجوالقي، من أهل بخارى، جواد العلم واشتهر بطلبه، وتوفى ببخارى.

٣- الصناعات الغذائية: اشتهرت مدينة شرغ – إحدى مدن بخارى – بإنتاج الحلوى المحشوة(٥)، التي كانت لها شهرة فائقة في نواحي بخارى كلها، وممن اشتهر بصناعتها أبو محمد عبد العزيز الملقب بشمس الأئمة، وهو من أشهر علماء الرأي ببخارى، ونظرا لكثرة الحبوب الغذائية في بخارى قامت بها صناعة الخبز، وممن اشتهر بهذا العمل أبو بكر بن يزداد الخباز، سكن بخارى وحدث بها عن جماعة من أهل العلم، وظهر نوع رقيق من الخبز يطلق عليه (دغول) واختص بأكله أثرياء المدينة، واشتهر بصناعة هذا النوع من الخبز أبو العباس محمد بن عبد الرحمن من أهل بخارى، وعمه أبو الحسن على بن محمد ابن عبد الرحمن قدم بخارى، وسكنها وحدث بها.

٤- صناعة البناء: تقدمت صناعة البناء في مدينة بخارى، ونظرة سريعة على الوصف الجغرافي للمدينة من حيث أسوارها وقلاعها، يتضح لنا مدى تقدم هذه الصناعة، والجدير

(١) السماني: الانساب ، ج٣، ص٣٣٣- ٥٣٤.
(٢) السمعاني: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص٢١٢.
(٣) السمعاني: المصدر نفسه، ج٤، صر٣٥٢.
(٤) السمعاني: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص٥٠٧.
(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٣٠.

بالذكر أن سكان المدينة كانوا يحصلون على هذه الأحجار من جبل (وركه) الواقع بالقرب من بخارى، كما اهتموا برصف طرقات المدينة وتزيين المباني بالجص[١].

٥- الصناعات الخشبية: انتشرت في بخارى أشجار الخلاف الضخمة التي كانت تستخدم في صناعة البناء، حتى إن ابن حوقل وصف بخارى بقوله: "وبناؤها من الخشب المشبك"[٢]. وممن اشتهر بهذا العمل - أعني قطع الأخشاب وصناعتها - أبو محمد أحمد بن محمد الجيلاني، واشتهر درب الخشابين ببخارى بصناعة الأثاث، وكان يسكن فيه الإمام أبو عبد الله محمد بن الفضل الشرفدني، وكان يعمل في هذا الدرب بصناعة الأثاث[٣].

٦- الصناعات المعدنية: بخارى من المدن الغنية بالمعادن، ومنها الحديد الذي قامت عليه كثير من الصناعات، ومنها صناعة السيوف والرماح، وغيرها من أدوات القتال، هذا إلى جانب الصناعات الأخرى، وممن اشتهر بالحدادة أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي، كان فقيها فاضلا من أصحاب الرأي، وايضا أبو عبد الله طاهر بن محمد المطوعي، كان اجداده يعملون في صناعة الحديد وورث هذه الصناعة، روى عنه جماعة من أهل العلم ومن أشهر مؤلفاته: "عيون المجالس وسرور الدارس"[٤]، كذلك اشتهرت بخارى بإنتاج النحاس الأصفر، الذي تصنع منه الأواني النحاسية مثل الغلايات والأباريق وغيرها من الأوعية، وممن اشتهر بهذا العمل ابو نصر إسحاق بن أحمد بن شيث الصفار، كان من أهل الحديث ورحل إلى الطائف وتوفي بها، وابنه إسماعيل بن أبي نصر، كان إماما فاضلا قوالا للحق، توفي ببخارى[٥].

٧- صناعة الكتان: كان الكتان قليلا ببخارى، مقارنة بالقطن، ومع ذلك قامت عليه بعض الصناعات، مثل صناعة الخيام وخياطتها، وممن اشتهر بهذا العمل أبو صالح خلف بن محمد بن إسماعيل، كان من أهل الحديث وتوفي ببخارى[٦]، كذالك صناعة الحبال، ويسمى (القلاس) واشتهر بهذا العمل أبو إبراهيم إسحاق ابن عبد الله الفلاس، من أهل بخارى حدث عن جماعة من أهل العلم[٧].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٠٢ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٤٩٥.

(٢) ابن حوقل: المصدر نفسه، ص٣٩٨.

(٣) السمعاني: الانساب ، ج٣، ص٤١٦.

(٤) السمعاني: المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٢.

(٥) السمعاني: المصدر نفسه، ج٣، ص٣٤٧.

(٦) السمعاني: المصدر نفسه، ج٢، ص٤٢٧.

(٧) السماني: المصدر نفسه، ج٤، ص٥٦٩.

ب ـ سمرقند: قامت في سمرقند صناعات متطورة، لا تقل روعة وجمالا عن بخارى، ومن أمثلة هذه الصناعات:

١ـ صناعة المنسوجات: ازدهرت صناعة المنسوجات في سمرقند(١)، ومن أشهر مدنها الصناعية مدينة ودارة التي اشتهرت بإنتاج الثياب الودارية القطنية، وكانت تلك الثياب تصدر إلى كل من فارس والعراق وسائر أقطار العالم الإسلامي، لدقة صناعتها(٢)، وبلغ من شهرة هذا النوع من الثياب انه لم يوجد بخراسان أمير أو وزير أو جندي، إلا والثياب الوزارية ظاهرة على ما يلبسه من فاخر الثياب، ووصل ثمن الثوب الواحد من دينارين إلى عشرين ديناراً(٣)، وهذا ما يؤكده المقدسي بقوله: "إن الثياب الوزارية على لون المصمت، كان يسميها بعض السلاطين ببغداد بديباج – حرير – خراسان"(٤)، وقد امتدح الجاحظ هذه الصناعة(٥)، ووصفها الإدريسي: "بأن لونها يشبه الزعفران، لينة الملمس، يعمر الثوب منها كثيرا، ويستخدم لمدة طويلة"(٦).

كذلك أشتهر أهل سمرقند بصناعة الملابس الصوفية، وذلك عن طريق غزل الصوف، ومن أشهر من عمل بهذه الصناعة أبو الحسن على بن محمد الفلكي كان شيخا صالحا، سديد السيرة كثير تلاوة القرآن الكريم، وكان يتكسب من عمل المغازل(٧)، كما عرف أهل سمرقند صبغ الثياب بالألوان المختلفة(٨)، واستخدموا في ذلك بعض المواد الكيمائية، وممن عمل بهذه الصناعة أبو بكر محمد بن إسحاق العصفري، كان من أفاضل الناس، وروى عنه جماعة من أهل العلم، واخوه أبو عمرو محمد بن إسحاق، سمع العلم بسمرقند وكان من خيار عباد الله الصالحين فضلا ووزعا(٩).

(١) ديماند: الفنون الإسلامية، ص٢٦١. د. زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص٢٤٧.
(٢) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢١٩، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٦، ص٢٥٤.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٠٧، بارتولد: تركستان، ص١٨٦.
(٤) أحسن التقاسيم، م٣٢٤. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥١٥.
(٥) المقريزى: الخطط، ج١، ص٤٠، ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٧١.
(٦) نزهة المشتاق، ج١، ص ٥٠١.
(٧) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص٤٠٠.
(٨) د. سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٣٨.
(٩) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص ٢٠٣.

٢ـ صناعة الزجاج : كان أهل سمرقند يحصلون على الرمال الصالحة لصناعة الزجاج من جبل كوهك، الواقع شرق المدينة[١]، وكانت تصنع منه الأدوات الزجاجية مثل الكؤوس والأطباق وغيرها، وعثر على كميات كبيرة من هذه المصنوعات تدل على دقة صناعتها، وجمال زخرفتها، فضلا عن إتقانها[٢].

٣ـ صناعة الفخار: تعد من أشهر الصناعات في سمرقند، وكانت تصنع منه القلال، التي تستخدم في سقى الماء، في شوارع المدينة. فقد ذكر ابن حوقل أن بسمرقند الفى مكان يسقى فيها ماء الجمد (المثلج) مسبل، عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وحباب نحاس منصوب، وقلال خزف مثبتة في الحيطان المبنية[٣]، ثم تأتي الزخارف ذات اللون الواحد التي تكون عادة داكنة سوداء أو بنية أو زخارف متعددة الألوان[٤] ، وهكذا تبدو هذه الأدوات الفخارية في غاية الجمال والإتقان[٥].

٤ـ الصناعات الخشبية: تقدمت صناعة الأخشاب بسمرقند تقدما كبيرا، حيث صنع منها الأثاث المتأنق الصنعة[٦]، وممن اشتهر بصناعة الأخشاب وخاصة الدقيقة منها أبو الحسن على بن عثمان الزاط، كان عالما فاضلا يأكل من كسب يده، وكان محترفا في صناعة الخشبة التي تصلح للحلاجين، ولم يكن أحد من الخراطين يعمل هذه الخشبة بسمرقند غيره، حتى إذا طلب من أحد الصناع عمل تلك الخشبة امتنع كرامة للشيخ[٧].

٥ـ الصناعات المعدنية: كذلك قامت في سمرقند كثير من الصناعات الحديدية، وذلك لتوافر خام معدن الحديد هناك ، ومن ثم ظهرت صناعة الأقواس والنشاب، وكان يتم التدريب عليها في المدينة، وممن اشتهر بهذه الصناعة أبو سعيد محمد بن العباس الغازى، كان شديد المحبة لأهل العلم، وكان هذا الشيخ المعلم الأول للرمي في سمرقند ، وتتلمذ على يده في العلم والرمى والصناعة خلق لا يحصى من أهل المدينة[٨]، وممن اشتهر بصناعة صقل الحديد

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٧٨. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص١٦٤.

(٢) ديماند: الفنون الإسلامية، ص٢٣٠. د. زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص٢٩٦.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ١٨١.

(٤) الفنون الإسلامية، م٣٨.

(٥) ديماند: الفنون الإسلامية، ص ١٦٨، د. زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص١٧٩–٣١٥.

(٦) ديماند: المصدر نفسه، م ١٢٣– ١٢٤.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج٢، ص٣٣٩.

(٨) السمعاني: المصدر نفسه، ج٣، ص٣١.

وصناعة السيوف والرماح والدروع[١] وغيرها، أبو سهل نصر بن أبي عبد الملك نزل سمرقند، وحدث بها وروى عنه جماعة من أهل العلم[٢].

٦ـ صناعة الورق : إن كانت بخارى فاقت سمرقند في صناعة الطراز، فإن سمرقند فاقت الدنيا في صناعة الورق، لذا فلا يعد استطرادا أن ألقى بعض الضوء على تطور صناعة الورق، وأهميته للعلم والعلماء.

تذكر المصادر الإسلامية أن أهل الصين من أوائل الدول التي استخدمت الورق في الكتابة[٣]، حيث كان يصنع من الحشيش والكلأ، وظهرت هذه الصناعة في بلادهم منذ القرن الثاني للميلاد، وذلك وفقا لرأي المستشرق الروسي (مارك أوريل) الذي عثر على كميات كبيرة من هذا الورق في أثناء اكتشافات الأثرية في آسيا[٤]، واما بلاد الهند فإنهم قاموا بصناعة الورق من الحرير الأبيض، وكان الفرس في البداية يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الحيوانات، وكتبوا كذلك في اللخاف – حجارة بيض رقاق – وفي النحاس وغيرها، وفي سعف النخيل – الجريد الذي لا خوص عليه – ، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم[٥]، ويشي ابن النديم على اهتمام الفرس بحفظ الورق والاهتمام به[٦] .

استمر العمل على ذلك حتى بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكان أصحابه (رضي الله عنهم) يكتبون القرآن الكريم على الأشياء السابقة، فعن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أنه قال عن جمعه للقرآن الكريم:" فجعلت أتتبع القرآن من العب واللخاف"، وفي حديث الزهري: "قبض رسول الله والقرآن في المحبة. وربما كتب النبي (صلى الله عليه وسلم) بعض مكاتباته في الأدم (الجلد)"[٧]. وفي خلافة أبي بكر الصديق (١١– ١٣هـ/ ٦٣٢– ٦٣٤م) وأثناء جمع القرآن الكريم، استقر رأى الصحابة على كتابة القرآن في الق، لأنه كان موجودا لديهم بكثرة، ولطول بقائه، وبعد قيام الدولة الأموية (٤١هـ / ٦٦١م) اعتنى الخليفة معاوية بن أبي سفيان بأمر الورق، فأصدر قرارا باستعمال القراطيس التي كانت تصنع في مصر والمعروفة بورق

(١) د. زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص٢٨٥.

(٢) السمعاني: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٥٧٥.

(٣) الثعالبي: الطائف المعارف، ص ٢١٨ النويرى: نهاية الأرب، جدا، ص ٣٦٧.

(٤) بارتولد: تركستان، ص٣٦٧.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٧٥.

(٦) الفهرست، ص٩٧٢. ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٨٨٩.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص ٩١، ج٢، ص٤٧٥.

البردي[١] للكتابة عليها، وحدد لكل طائفة مقدار الورق فكان يكتب للملوك في قرطاس من ثلثي طومار (الورقة الكاملة)، وإلى الأمراء من نصف طومار، وإلى العمال والكتاب من ثلث، وإلى التجار واشباههم من ربع، وإلى الحساب والمساح من سدس[٢]، وفي خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥م) كانت الدولة الإسلامية تصدر الورق إلى دولة الروم، ولأسباب كثيرة – اختلف المؤرخون[٣] حولها ولا محل هنا لذكرها – قام عبد الملك بتعريب الدواوين، ومنع تصدير الورق إلى الخارج، وأخذت صناعة الورق تزدهر نوعا ما.

ولكن يبدو أن صناعة الورق لم تكف الاستهلاك بسبب اتساع الدولة الإسلامية، لذا فإننا نجد الخليفة عمر بن العزيز (٩٩- ١٠١هـ/ ٧١٧- ٧٢٠م) يوصى عماله: "بالا تكتبوا في طومر (وهو الطومار وهي الورقة الكاملة) بقلم جليل، ولا تمدن (الخط) فيه. كما أرسل إلى أبي بكر بن حزم يوصيه ... فأدق قلمك، وقارب بين سطورك واجمع حوائجك، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به"[٤]، وإن كان في هذا الخبر إشارة إلى شدة ورع عمر بن عبد العزيز، ومحاسبته لعماله، ولكنه يثبت في الوقت نفسه قلة الورق في الدولة الإسلامية حينئذ.

استمر الوضع هكذا حتى قامت الدولة العباسية (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) وصارت سمرقند جزءا أصيلا من كيانها، فنقلت الدولة عنهم صناعة الورق[٥]، يقول ابن الأثير في أحداث عام (١٣٤هـ/ ٧٥٢م): "وفيها غزا خالد بن إبراهيم مدينة كش وأخذ عنهم الأواني الصينية المنقوشة المذهبة ما لم ير مثلها، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئا كثيرا، فحمل إلى أبي مسلم الخراساني وهو بسمرقند[٦]، هذا وأخذ خالد بن إبراهيم أساري من الصين ووضعوا في سمرقند، ثم بدوا يصنعون الورق الصيني هناك"[٧]، ويشير ابن النديم إلى أنواع الورق المستخدم في أيام الدولة العباسية، ومنها: "الورق السليماني (نسبة إلى سليمان بن

---

(١) الكندي: فضائل مصر المحروسة، ص٤٩. د. سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، ص٢٩٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤٦، ج٦، ص١٨٩- ١٩٠.

(٣) انظر: البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣٤١ وما بعدها، والجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص١٨ وما بعدهاء الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٠٨. المقريزى: الخطط، ج١، ص١٥٩.

(٤) ابن الجوزى: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٧٥.

(٥) د. زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص٢٢- ٦٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص٩٤ وانظر: ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص٣٢٤.

(٧) القزويني: آثار البلاد، ص٥٣٦.

راشد عامل الخراج على خراسان لهارون الرشيد)، والورق الطلحي (نسبة لطلحة بن طاهر)، والورق الفرعونى (نسبة إلى فرعون مصر ولعله ورق البردي)، والورق الجعفري (نسبة إلى جعفر بن يحيى البرمكى)، والورق الطاهرى (نسبة إلى طاهر بن الحسين)"[١]، ويذكر ابن النديم أنه رأى الورق الصيني والخراساني عند رجل يدعى محمد بن الحسين ويصفه بأنه كان جماعة للكتب له خزانة لم أر لأحد مثلها، وقد احتال عليه ابن النديم حتى نجح في قراءة بعض هذه الكتب على حد قوله[٢].

ولما ولى هارون الرشيد الخلافة (١٤٩ - ١٩٣هـ/ ٧٦٦- ٨٠٩م) أشار عليه الفضل بن يحيى البرمكي بإقامة مصانع الورق (الكاغد)، ومن ثم كثر بين الناس وعم استعماله، فأمر الرشيد: "أن يكتب الناس في الكاغد، لأن الجلود وغيرها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه إن محى منه فسد"[٣]، ثم انتشرت الكتابة في الورق في سائر أقطار الدولة الإسلامية، وأقيمت مصانع الورق في مصر ودمشق وفلسطين وطرابلس الشام[٤].

ولم تتأثر صناعة الورق في سمرقند بانتشار مصانع الورق في بلدان الخلافة العباسية، وأجمعت المصادر الإسلامية على أن من خصائص سمرقند الكواغيد (الورق) التي عطلت قراطيس مصر (البردي)، والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون إلا بها وبالصين[٥]، ويقول الإصطخري وابن حوقل، مع اختلاف قليل في اللفظ: "ولهم الكاغد الذي لا نظير له في الجودة والكثرة"[٦]. ويشير المستشرق آدم متز الذي يقول: وكان أجود الورق في ذلك العصر بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نقلت صناعته من الصين وناله على أيدي المسلمين التغير المهم الذي يعتبر حادثا في تاريخ العالم، ثم يؤكد الحقيقة التي قلتها وهي أن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعة الورق دائما[٧].

---

(١) الفهرست، ص٣٦. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٢، ص٢٢- ٢٤.

(٢) ابن النديم: المصدر نفسه، ص٢٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٧٥. ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص٩٧٤.

(٤) فيليب حتى تاريخ العرب، ص٤١٥. د. صفي محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية، ص١٩٦.

(٥) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢١٨، السمعاني: الأنساب، ج٥، ص١٨، النويري: نهاية الأرب، ج١، ص٣٦٧.

(٦) المسالك والممالك، ص١٦٢، صورة الأرض، ص٣٨٥.

(٧) الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٦٩.

ومما سبق يمكن القول إن الصينيين هم أول من صنعوا الورق من الحرير ولا خلاف بين مؤرخي العلوم في ذلك، وإنما يرجع فضل العرب في هذه الصناعة إلى انهم استطاعوا أن يستبدلوا بالحرير في صناعة الورق مواد أخرى أكثر توافر وأقل تكلفة مثل القطن.

على كل حال كان لتقدم صناعة الورق أثر كبير في القرنين الثالث والرابع الهجري، ونلخص هذا الأثر في الناحية العلمية، حيث أدى الى ظهور صناعة (حرفة) جديدة أطلق عليها الوراقة: وهي صناعة كان يقوم أصحابها بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها.

وفي بغداد كان أكثر من مائة بائع للكتب، استخدمت حوانيتهم في نسخ الكتب وبيعها، ويذكر ياقوت الحموي أن في بغداد دربا يسمى "درب القراطيس" نسب إليه كثير من العلماء[١] ، والجاحظ (١٦٣- ٢٥٥هـ/ ٧٨٠- ٨٦٩م) كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة.

وفي سمرقند تقدمت هذه الحرفة كثيرا وازدهرت، ومن أشهر من اشتغل بها محمد بن أحمد الحزام، كانت صناعته حزم الأوراق (الكاغد)، وقد حدث عن جماعة من أهل العلم ثم انتقل إلى إسفيجاب وسكنها ومات بها، وممن عمل في خزن الكتب المكتبات أبو عبد الله محمد بن أحمد الخازن، انتقل إلى فرغانة وتوفي بها[٢]، وممن عمل في نسخ وبيع الورق ابو توبة سعيد بن هاشم الكاغدى، طاف الآفاق في طلب العلم، وتوفي بسمرقند عام (٢٥٩هـ/٨٧٢م).

والجدير بالذكر أن هذه الصناعة ازدهرت في سمرقند، واستطاع العاملون بها تطوير الورق حتى نسب إليه بعضهم، ومن هؤلاء أبو الفضل منصور بن نصر ابن عبد الرحيم الكاغذي، وإليه ينسب الورق المنصوري المشهور بخراسان، ومنهم أبو علي الحسن بن ناصر الكاغذى، وإليه ينسب الورق الحسني، والذي يوصف بأنه لم يلحقه من سبقه في جودة الصنعة ونقاء الآلة وبياضها"[٣]، وكان هذا الشيخ صدوق اللهجة فقيها توفي بسمرقند.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جدا، ص٣٦٠، الأصفهاني: الأغاني، ج٢٥، ص ١٩٣ في ترجمة إسماعيل القراطيسي.

(٢) المصدر نفسه، نفس الجزء، ص٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه، نفس الجزء، ص١٩.

(ج) كش: المدينة الثالثة من مدن أقاليم الصغد، وقد اشتهرت بصناعة الملح[١]. والعقاقير والمن[٢] المسمى (الترنجبين)، ومنها كان يصدر إلى باقي بلدان الخلافة الإسلامية.

(د) نسف (نخشب): المدينة الرابعة من مدن اقليم الصغد، اشتهرت بصناعة الذهب وصياغته، وكان الطريق الرئيس بالمدينة يسمى (سكة الصاغة) وذلك لكثرة دكاكين الصاغة هناك، وممن اشتهر بهذا العمل أبو على محمد بن عثمان، كان عالما فاضلا بارعا في صنعته، رحل في طلب علم الحديث إلى مصر والحجاز (ت٣٤٤هـ).

ثانيا- إقليم خوارزم:

تمتع إقليم خوارزم بتقدم الصناعة وإن كان إقليم الصغد قد اشتهر بكثرة المصنوعات، فإن إقليم خوارزم قد اشتهر بدقتها وجودتها. ومن أمثلة هذه الصناعات:

١- صناعة المنسوجات: تقدمت صناعة المنسوجات في هذا الإقليم تقدما كبيرا، فصنعت المنسوجات الطويلة والقصيرة من القطن والحرير، كما صنعت الأزر والمقانع والثياب الملونة، بالإضافة إلى صناعة البسط، وثياب اللحف، واشتهر الإقليم كذلك بإنتاج نوع من الثياب يسمى الكرابيسي - وهو ثوب من القطن الأبيض - وكان النساء يعملن بالإبرة صناعات جيدة كالخياطة والتطريز[٣] والأعمال الدقيقة الأخرى، وممن اشتهر بصناعات الثياب وتقصيرها في هذا الإقليم أبو طاهر أحمد بن محمد القصارى رحل في طلب العلم إلى بغداد، وروى عنه جماعة من أهل العلم .

والجدير بالذكر، أن صناعة النسيج بخوارزم قد تأثرت بالصناعة المصرية، وان كانت كواغد سمرقند قد عطلت قراطيس مصر، فإن المنسوجات المصرية قد غزت خوارزم، ومن ثم أطلقوا على بعض منسوجاتهم اسم الدبيقى - نسبة إلى بلدة دبيق بمصر - وهي ثياب تنسج من الكتان ويضم إليه أحيانا الذهب والحرير، كما أطلقوا على نوع آخر الثياب الأشمونية[٤]، مأخوذة من بلدة أشمون المصرية.

---

(١) مجهول: حدود العالم، ص٨٥. كيرلانسكى: تاريخ الملح في العالم عالم المعرفة، الكويت، ص٨٧.

(٢) المن: ينزل على أطراف الشجر ليلا ويلتقط منها ويستخدم في علاج السعال وامراض الصدر ابن

البيطار الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٢ ص ٢٠٠.

(٣) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢٦، مجهول: حدود العالم، ص٩٤.

(٤) المقريزى: الخطط، ج١، ص٥٨٣. د. مني على مدن مصر الصناعية، ص٥٧- ٨٢.

٢- الصناعات الحيوانية: عرفت خوارزم الصناعات الحيوانية، ومنها الجلود المدبوغة، مثل:جلود الماعز والأرانب البرية والحمر الوحشية، وذلك لحماية الناس من البرد الشديد الذي يتعرض له الإقليم في فصل الشتاء، كما استخدموا ريش طائر السمندل[١] في صناعة المناديل، ويمتاز ريش هذا الطائر بأنه إذا دخل النار عاد أنظف مما كان، وقد ذكر ابن خلكان – في ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيقى (٧٥٤- ٦٢٦هـ) – أنه رأى منه قطعة منسوجة على هيئة حزام الدابة، ثم قال:" فألقيت في النار فما أثرت فيها، فغمس أحد جوانبها في الزيت وجعل في النار فاشتعل وبقي زمانا طويلا ثم أطفئ، وهو على حاله لم يتغير"[٢].

٣- الصناعات المتنوعة: ظهرت بعض الصناعات المتنوعة في إقليم خوارزم، ومنها الصناعات الحديدية، ومن أمثلتها السيوف والدروع والقسى والأقفال، وايضا الصناعات الخشبية، اذ كانت تصنع السفن من جذوع الأشجار، وكانت تستخدم في الملاحة النهرية، بالإضافة لصناعة البناء والحلى والزخرفة[٣].

وبالجملة، فقد اشتهر أهل خوارزم بأنهم أهل الصناعات الدقيقة، حيث كانت تصنع الآلات الدقيقة من العاج والآبنوس، ما لا تصنع في غير هذا الإقليم[٤]، لذلك فإن ياقوت الحموي الذي زار خوارزم عام(٦١٦هـ/ ١٢١٩م) اشار عليهم بقوله:" فهي بلاد طيبة، وأهلها علماء، فقهاء، أذكياء، أغنياء، المعيشة بينهم موجودة، وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة... وأهلها ذوو ثروة:[٥].

ثالثا: إقليم طخارستان:

اشتهر إقليم طخارستان بصناعة المنسوجات ناصعة البياض[٦]، وكانت مدينة ترمذ تنتج الصابون الجيد، والجبن، والسمن، ونوعا من الحصر يسمى البوارى، ويذكر الإدريسي أن مدينة الطالقان:" قامت بها كثير من الصناعات"[٧]، ولكنه لم يقدم لنا أمثلة لها.

---

(١) هو: طائر بلاد الهند يدخل ريشه النار فلا يحترق . الجاحظ: الحيوان، ج٢، ص١١١، ج٥، ص٣٠٩

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٤٠٧- ٤٠٨.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٨٩. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥٠٢.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٧. القزوينى: آثار البلاد، ص٥٢٠.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٢، م٢٥٥، ج٤، م٤٧٧.

(٦) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، صر٤٧٢.

(٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٤٨١ -٤٨٤.

رابعا: إقليم فرغانة:

اشتهر هذا الإقليم بصناعة الذهب والفضة والفيروز، وقامت بتصدير الحجر الخاص بصناعة الرحاء، وامتاز هذا الحجر بنعومته وصلابته. وكانت تنتج الفحم الحجري الذي يستغل في الوقود[١].

كذلك اشتهر الإقليم بصناعة العقاقير التي كان لها تأثير عجيب، بالإضافة الى صناعة الآلات الحديدية، وخاصة الأسلحة التي اشتد إقبال الناس عليها في بغداد، وذلك لما امتاز به حديد فرغانة من ليونة سهلت على الصناع صياغته وتشكيله.

خامسا: إقليم أشروسنة:

اشتهر هذا الإقليم بالصناعات الجلدية والخشبية، وممن اشتهر بهذا العمل أبو يوسف يعقوب بن معبد الخراط، ولد بمدينة بومجكت – عاصمة الإقليم – وكان ثقة، روى عنه جماعة من أهل العلم، توفي عام (٢٦١هـ/٨٧٤م).

سادسا: إقليم الشاش:

قامت في إقليم الشاش، صناعة الثياب الرقيق، واشتهر إقليم إسفيجاب بإنتاج الثياب الكرابيسي[٢]، واشتهر كذلك بعمل الإبريسم (الحرير)، وممن اشتهر بهذه الصناعة أبو شريح إسماعيل بن أحمد النقاضى، كان عالم فاضلا ثقة مشهورا، كما ظهرت في الإقليم الصناعات الجلدية، مثل دبغ الجلود، وخاصة الحمر الوحشية وتسمى (الكيمخت)[٣]، ومن الصناعات المهمة ايضا الصناعات المعدنية، مثل صناعة السيوف والسهام والسلاح والآلات النحاسية، كما صنعوا الإبر والمقاريض والقدور[٤].

وممن اشتهر بعمل الصناعات الحديدية الدقيقة الإمام محمد بن إسماعيل القفال (ت٣٦٥هـ/٩٧٥م)، كان علامة في التفسير والفقه والحديث والأصول، واشتهر بصناعة الأقفال وقد عمل قفلا وزنه دانق مع المفتاح، فتعجب الناس من حقه في الصناعة.

---

(١) المقدسي: احسن التقاسيم، م٢٨٩.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، مر٢٧٢، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٣.

(٣) هو: جلد البقر الوحشي. الفيروزآبادى: القاموس المحيط، ص ٢٧.

(٤) مجهول؛ حدود العالم، ص٩٠- ٩١.

والآن، ننتقل إلى صناعتين مهمتين انتشرتا في جميع بلاد ما وراء النهر، لذا فلم أخص بهما إقليما بعينه، وهما:

أولا: استخدام الطواحين في الصناعة:

عرفت الحضارة الإسلامية نوعين من الطواحين، وهما: طواحين الهواء، وطواحين الماء. أما عن النوع الأول: فترجع فكرة استخدام طواحين الهواء إلى عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣هـ/ ٥٨٦- ٦٤٤م) - رضي الله عنه - الذي أشار عليه أبو لؤلؤة المجوسى بعمل طواحين الهواء(١)، ولكن المشروع لم ينفذ بسبب خيانة هذا المجوسى، واشتراكه في قتل أمير المؤمنين.

وأما عن النوع الثاني: طواحين الماء، أن علماء الحضارة الإسلامية قد راعوا في حفر القنوات أن تكون منحدرة بحيث تساعد على سرعة انسياب الماء، وتستعمل في الوقت نفسه في إدارة الطواحين، وجدير بالذكر أن نهر دجلة بالعراق كانت عليه كثير من هذه الطواحين، فقد ذكر ابن طيفور، أنه في غرة ذي الحجة عام(٢١٥هـ/٨٣٠م)، زاد نهر دجلة بالماء زيادة كبيرة حتى صار الماء على ظهور بيوت الرحي، وتقطعت جسور بغداد(٢).

ومن حسن الحظ، أن مصادرنا الإسلامية ذكرت كثيرا من أمثلة هذه الطواحين ومنها عشرة على نهر جيحون، وكان هناك نهر يسمى "الطاحونة وذلك لكثرة الأرحية عليه(٣)، ويقدم لنا العالم العظيم البيروني (٣٦٢- ٤٤٠هـ) في رسالة له، وصفا رائقا لمعالجة خامات الذهب، ذكر فيها بوضوح أن خامات الذهب كانت تسحق بالمطارق التي تدار بالماء، وكان نفس الشيء يحدث في سمرقند عند طرق الكتان الصناعة الورق(٤)، كذلك توجد براهين كثيرة تؤكد لنا أن أهل بخارى وسمرقند قد استخدموا الأرحية في طحن الحبوب بطاقة المياه(٥).

ويؤكد المستشرق (هيل) أن سكان الصغد - بخارى وسمرقند - قامت على أكتافهم صناعة الطواحين في العالم الإسلامي، وعن طريقهم انتقلت إلى أوربا(٦).

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٣٠٢.

(٢) كتاب بغداد، ص ١٤٣.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٨٠.

(٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ما١. أدم منز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٦٦.

(٥) هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م١٥٠، وصور هذه الآلات، ص ١٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص١٥٦.

ثانيا: صناعة العطور

حث الإسلام أتباعه على النظافة في الملبس والمأكل والمسكن، ودعا إلى استخدام السواك وتهذيب الشعر وتقليم الأظافر، كما حث الإسلام على استخدام الطيب، فقال صلى الله عليه وسلم: "وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه؛ وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه"(١). وأوصى علماء الأمة باستعمال الطيب، فقال الإمام الشافعي: "من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله"(٢).

وبخصوص بلاد ما وراء النهر اشتهرت بكثرة الورد والبنفسج والزعفران، وغيرها من الرياحين المزروعة بها، هذا إلى جانب ما اشتهر به سكان بلاد ما وراء النهر من المروءة والمحافظة على جمال ونظافة ثيابهم، يقول ابن حوقل: " ... وهم يرجعون إلى جمال، وكانوا من الإفراط في إظهار المروهات، وتكلف النفقات، والقيام على أنفسهم بما يزيدون به على أكثر بلاد خراسان"(٣) ، لهذا تقدمت صناعة الطيب (العطور) في هذه البلاد تقدما كبيرا، وقد قدم لنا العالم العظيم الكندي وصفا لجهاز التقطير في مؤلفه "الكيمياء والعطور والتقطير، وهي رسالة تحتوي على (١٠٧) طريق ووصفات، لتحضير وصناعة العطور(٤).

(١) أخرجه أبو داود السنن رقم الحديث (٢١٧٤). الترمذي، السنن رقم (٢٧٨٧) النسائي: السنن رقم
(٥١١٧) من حديث أبي هرير

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص١٦٢- ٢١٤. وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٦، ص٢٢٦ فصل التزين والتطيب

(٣) صورة الأرض، ص٤٠٧.

(٤) حيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص١٢١.

ومن أمثلة الطيب المستخدم في بلاد ما وراء النهر:

١- المسك: وهو من أجل الأنواع[١]، وقد فضل المسعودي المسك البتى على باقي الأنواع الأخرى، لأنه طبيعي، وأوصى أن ينتقل عن طريق البر - عبر سمرقند - لأن البحر يؤثر فيه، ويأتي في المرتبة الثانية مسك الصغد، وكان يصدر إلى خراسان، ثم يأتي المسك الصيني في المرتبة الثالثة[٢]، يقول ياقوت الحموي: "... ومنها من المسك الذي يجلب إليها من الثبت، ما ينقل إلى سائر الأمصار الإسلامية كلها. ويرتفع إلى الصغانيان، وإلى واشجرد، الزعفران ما ينقل إلى سائر البلدان"[٣] ،وممن اشتهر بتجارة المسك في سمرقند أبو يزيد حامد بن إسماعيل العطار المعروف بالمسكي، كانت له تجارة واسعة مع الهند والصين، روى عنه جماعة من أهل العلم وتوفي بسمرقند عام(٢٣٤هـ/٨٤٨م).

٢- العود: وكان يستورد من بلاد الهند، عن طريق سمرقند، فكان أهل بلاد ما وراء النهر ينتفعون به، وأجود العود ما كان صلبا ظاهر الرطوبة، وكان التجار في الجاهلية حتى آخر الدولة الأموية يعرضون عن شرائه نظرا لكثرة نفقاته ولمرارته، وفي رسالة ملك الهند إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، يفتخر بأن بلاده تصدر إلى العالم العود، الذي يوجد ريحه على مسافة اثني عشر ميلا[٤].

وبعد قيام الدولة العباسية أمر المنصور أن يحمل إليه نبات العود من الهند فاشتهر هذا النبات بين الناس وغلا ثمنه ،واحتمل الناس ما فيه مرارة الرائحة تشبها بأمير المؤمنين[٥]، ثم كثر استعمال هذا النوع من الطيب، حتى إن المأمون أهدى إليه في يوم العيد سفط (صندوق) ذهب، فيه قطعة عود هندى بطول وعرض السفط[٦].

٣- الصندل: كان يؤتى به أيضا من بلاد الهند عن طريق بلاد الصفد، وله أنواع كثيرة أشهرها المقاصيري، الذي يشبه رائحة الزعفران الذكية، ويقال إن بعض خلفاء بني العباس - لم تذكر المصادر اسمه - اتخذ لبعض أمهات أولاده وجواريه هذا النوع[٧]، اذ اهتم المنصور

---

(١) المسلك: يخرج من دابة أشبه بالظبي الصغير، يجتمع عند سرتها، فتحك نفسها على الصخور والأحجار حتى يخرج منها، ثم يأتي التجار للحصول عليه من تلك الصخور. ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٦، ص٢٥٤.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١٤٣.

(٣) معجم البلدان، ج٤، ص١٩٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١١٣.

(٥) ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج٣، ص٤٠٥.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، ج٢، ص١٢١.

(٧) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢١٥.

بهذا النوع من الطيب، فقد ذكر الهيثم بن عدي أن الخليفة المنصور كان يبخل في كل شيء إلا في الطيب، فإنه كان يأمر أهله به، فكان يشترى في كل سنة اثني عشر ألف مثقال، فيتطيب كل شهر بألف مثقال(١).

٣- العنبر: وكان له أنواع كثيرة(٢)، وقد عم استخدامه جميع بلاد ما وراء النهر، اذ كانت بلاد ما وراء النهر الطريق الموصل بين بلاد الهند والصين وبين الخلافة الإسلامية في بغداد، فكانت هذه البلاد تنتفع بهذا الطيب.

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج١، ص٣٤٦.

(٢) انظر التفاصيل في القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١١٦ وما بعدها.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث نستطيع القول، إن الصناعة كانت متعددة ومتنوعة في بلاد ما وراء النهر، وكانت من أرقى صناعات ذلك العصر، حيث بلغت مستوى رفيعاً من الجودة والإتقان، ومن ثم أصبح لها شهرة واسعة، ومكانة خاصة في إنتاج أنواع عديدة من المنسوجات المختلفة التي لاقت رواجا كبيرا في الأقطار الإسلامية الأخرى، بالإضافة إلى صناعة الورق والعطور، والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها من الصناعات، كل هذا شجع الصناع على رفع مستوى إنتاجهم، والإكثار من الأنواع التي تتسم بالذوق الرفيع في صناعتها. مما جعل سائر بلدان العالم الإسلامي تقبل على شرائها.

ثبت المصادر

- آثار البلاد واخبار العباد، زكريا محمد بن محمود القزويني، (بيروت: ١٩٨٨)، دار صادر.
- أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد المقدسي، (القاهرة: ١٩٩١)، مكتبة مدبولي.
- الأحكام السلطانية، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: احمد مبارك البغدادي، (الكويت: ١٩٨٩)، مكتبة دار ابن قتيبة.
- الأنساب، ابي سعيد بن محمد بن منصور السمعاني، تحقيق: عمر البارودي، (عمان: ١٩٨٨)، دار الجنان.
- بلدان الخلافة الشرقية، لسترنج، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، (بغداد: ١٩٥٤)، مطبعة الرابطة.
- تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، (مصر: ١٩٦٨)، مكتبة النهضة المصرية.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد جمال الدين سرور، (صنعاء: ٢٠٠٤)، دار الكتب.
- تاريخ بخارى، ابي بكر محمد بن جعفر النرشخى، تحقيق: امين عبدالمجيد، نصر الله مبشر الطرازى، دار المعارف، ط٣، (القاهرة: ١٩٦٥) .
- تحليل الفكر الاقتصادي في العصر العباسي الأول، عصام عباس محمد نقلي، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة، (جامعة ام القرى :١٩٩٢).
- تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، بارتولد: ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة الكويت. ١٠٤١م - ١٨٩١م.
- تطور صناعة المنسوجات بالمشرق الإسلامي في العصر العباسي، سامية توفيق، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥.
- الخطط، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي المقريزي، (القاهرة: ٢٠٠٢)، مطبعة بولاق.
- سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ضبطه: نعيم زرزور، (بيروت: ١٩٨٤)، دار الكتب العلمية.
- صبح الأعشى، احمد بن علي بن احمد القلقشندي، (بيروت: د.ت)، دار الكتب العلمية.
- صورة الأرض، أبو القاسم محمد بن حوقل، (بيروت: ١٩٩٢)، مكتبة الحياة.
- العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية ، عبد الشافي محمد عبد اللطيف، - الطبعة ٣، (مصر: ١٩٩٦)، دار الاتحاد التعاوني.

- العقد الفريد، احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحه، (بيروت: ١٩٨٣)، دار العلمية.
- فتوح البلدان، أبو بكر احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق: رضوان محمد رضوان، (مصر:١٩٣٢)، المطبعة المصرية في لازهر.
- فضائل مصر المحروسة، عمر بن محمد بن يوسف الكندي، (مصر: ١٩٩٧)، مكتبة الاسرة.
- الفنون الإسلامية، م. س. ديماند، ترجمة: احمد محمد عيسى، (مصر: ٢٠١٨) دار المعارف.
- الفنون الإيرانية، زكي محمد حسن، (القاهرة: ١٩٤٠)، دار الكتب المصرية.
- الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم ، (بيروت: ١٩٨٨) ، دار احياء التراث.
- الكامل في التاريخ، عز الدين بن ابي الحسن علي بن ابي الكرم المعروف ابن الأثير، تحقيق : سمير شمس، (بيروت: ٢٠٠٩) ، دار صادر.
- لطائف المعارف، ابي منصور الثعالبي، تح: محمد إبراهيم سليم،(بيروت:٢٠٢٠)، دار صادر.
- مدن مصر الصناعية، صفي محمد عبدالله، (القاهرة: ٢٠٠٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي، (بيروت: ١٩٦٥)، دار الاندلس.
- المسالك والممالك، أبو عبيد الله بن عبدالعزيز بن عبدالله البكري، (بيروت: ١٩٩٢)، دار الغرب الإسلامي.
- مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، سيدة إسماعيل كاشف، (مصر: ١٩٩٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- معجم البلدان، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ،ط٢، دار الكتب العلمية ،(لبنان:٢٠١١).
- مقدمة ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، تحقيق: أ. م. كاتمير، (بيروت: ١٩٩٢)، مكتبة لبنان.
- المنتظم، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، (بيروت: ١٩٩٢)، دار الكتب العلمية.
- موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبى، (مصر: ١٩٩٣)، مكتبة النهضة المصرية.

- نزهة المشتاق في اختراق الافاق، أبو عبدالله محمد بن محمد الادريسي، (القاهرة: ٢٠٠٢)، مكتبة الثقافة الدينية.
- نهاية الأرب في فنون الادب، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب بن محمد النويري، تحقيق: نجيب مصطفى فواز، (بيروت: ٢٠٠٤)، دار الكتب العلمية.
- الوزراء والكتاب، ابي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري، (بيروت: ١٩٨٨)، دار الفكر الحديث.